

المحاضرة الثالثة: الرواية العربية وانفتاحها على الرواية الغربية

الدكتورة زهرة خالص

تناولنا في هذه المحاضرة نشأة الرواية العربية وعلاقة الغرب بظهور هذا الفن في الثقافة العربية وأبرزنا اختلاف النقاد حول علاقة الغرب بنشوء فن الرواية عند العرب في العصر الحديث؛ فمنهم من اعتبرها جنيئاً نما من جذوره التراثية العريقة، وهو استمرار للتقاليد الأدبية المتوارثة في الفن القصصي عند العرب، ومنهم من ذهب إلى أنّ الرواية العربية غريبة الشكل عربية المحتوى، إلى قائل-أغلب الباحثين- إلى أنّ الرواية فن مستحدث وفد إلينا من الغرب، لكونها الفن الأكثر استيعاباً للتجارب والتقنيات الغربية الحديثة.

وأبرزنا كذلك أن الوعي بالغرب الذي حصل للروائيين العرب هو وعي شقي، بدا من خلاله الغرب في صور متناقضة، فالغرب مرفوض لكنه محبوب، يبهر ولكنه مخيف، يبني الذات وفي الوقت نفسه يهدمها، يشد العرب بجاذبيته ويحملهم على كراهيته، كلما ازداد تحضراً ازداد توحشاً.

يذهب كثير من الباحثين الذين تناولوا الخطاب الروائي العربي من جوانب فنية تقنية إلى أنّ الرواية العربية، حسب المقاييس المتعارف عليها فن أخذ من الغرب، وهذا يعني أنّ الرواية، بمفهومها الحديث، تنعدم في المصنفات العربية القديمة، وأنّ العرب كانوا يستهجنون القصة عموماً، وهذا ما أكدّه محمود تيمور - وهو من رواد القصة العربية إنشاءً ودراسةً - في قوله: «أول ما يصدّم الباحث في الأدب العربي هو تفاهة القصة، وقلة ما كتب فيها، وعناية العربي بها»¹.

¹ - محمود تيمور، نشوء القصة وتطورها، المطبعة السلفية، القاهرة، ص:18.

وضعف اهتمام العرب بالفن الروائي حتى بعد بداية التفاعل مع الغرب، أخذًا وتعريبًا، وترجمة، يؤكدُه جورجِي زيدان في قوله: «الرواية فن له شأن عظيم في آداب اللغة الإفريقية يكاد يكون أهمها، وأما في العربية فإنه أضعف فروع الأدب»¹.

في حين يرى بعض الباحثين ضرورة البحث عن أصول أخرى لنشأة الرواية العربية غير النقل والترجمة عن الأدب الغربي، وعندئذ سيكون «من المتعذر على التفكير العلمي أن يقبل ما يردده الكثيرون من أنّ الفن مستحدث في أدبنا العربي لا جذور له، نقلناه من صور الحضارة الغربية وقلدناه محاكين ما نقلناه، ثم بدأنا ننتج بعد هذا ألوانا منفردة من هذا الفن الجديد على أدبنا»².

ويرى فاروق خورشيد أنّ علة تغريب هذا الفن العربي هي هاجس الغرب الذي يسكن أذهان الدارسين لفن الرواية والقصة العربية، الذين استراحوا إلى الافتراض الذي يقول إنّ هذا الفن مستحدث في أدبنا، نقلناه نقلا عن الآداب الغربية ضمن ما نقلناه من صور الحضارة والفن في مطلع حركتنا الفكرية عن طريق الترجمة حينًا، وعن طريق المحاكاة والتقليد بعد ذلك، ويأخذ على الكثيرين من دارسي تاريخ الرواية العربية مأخذ عدّة؛ منها داء الخضوع لأحكام مسبقة، غالبًا هي أحكام المستشرقين، والاستسلام لها في طواعية ويسر، والإسراع إلى تكذيب الناقد العربي أو الدارس العربي إذا ما تعارض رأيه مع ما أجمع عليه المستشرقون، ويمشي مع سهولة البحث ويسر تناوله، وهذه عقدة نقص ولدها انفتاحنا الحضاري المفاجئ على الغرب بعد عصور طويلة من التخلف والانعزال.³

والحق إنني أقدر الجهود التي بذلها الباحثون لتأصيل هذا الفن بمحاولة إيجاد جذور تربطه بتراثنا العربي لما في هذا البحث من فائدة أدبية فكرية جمّة، إلا أنني أذهب إلى أن التفات العرب - في العصر الحديث - إلى هذا الجنس الأدبي واختيارهم إياه، جاء نتيجة جملة مع التغيرات حدثت في حاجة ماسة إلى أسلوب جديد تعبر به عن نفسها، وطموحاتها يكون شبيهاً أو مثيلاً للبرجوازية

¹ - جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج2، دار الهلال، القاهرة، ص337.

² - فاروق خورشيد، فن الرواية العربية، عصر التجميع، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، القاهرة، 2002، ص9.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص11-34.

العربية الحديثة، «ولم يكن بإمكان التراث على ما فيه من روعة وطرافة وأصالة أن يرضي البرجوازية الجديدة النامية»¹.

فالرواية العربية باعتبارها جنسا أدبيا جديدا، وشكلا له تقنياته الحديثة غربية الأصل، لكونها الفن الأكثر استيعابا للتجارب والتقنيات الغربية الحديثة.

ومن هنا نفهم لماذا «أغلب الدراسات التي تناولت هذه القضية قد اتفقت على أنّ الرواية هي نوع أدبي وفد إلينا من الغرب بعد الاتصال الحديث، وهذا الرأي هو الرأي الأصوب والأدق علمياً؛ لأنّ الرأي الآخر الذي يرى أنّ الرواية هي امتداد لأنواع قصصية عربية قديمة، لا يفهم الفارق الواضح بين فنية تلك الأنواع القديمة وتنوعها، وبين خصائص الرواية كنوع محدد، هذا بالإضافة إلى أنه يتصور أنّ الأنواع الأدبية تسير سيرتها الحياتية المستقلة، وتنتقل من زمن لآخر بحرية مطلقة لا تقيدتها حدود الزمن وتتطور البشر منتجي هذه الأنواع الأدبية؛ أي أنّهم يعزلون هذه الأنواع في ذاتها ويفصلونها عن تاريخيتها التي هي المكون الأصلي لها»².

وإذا كانت الرواية العربية هي إنجاز ترجمة عن أصل غير موجود عند العرب، واستيرادها يعني دمج الغرب بصفته كياناً شكلياً دلاليّاً في مقومات ثقافتنا، فإن الصعوبة التي واجهت الباحثين العرب في هذا الحقل الأدبي، ليست في البحث عن أصول عربية لهذا الجنس بقدر ما تكمن في كيفية كتابة رواية عربية أصيلة الشكل والمضمون³.

فالرواية العربية ثمرة من ثمرات اتصال المثقفين العرب بحضارة الغرب، وهي أكثر الفنون الأدبية طرحاً نقاشاً لقضية الغرب في عمق الثقافة العربية الحديثة، وقد اتخذ حضور الغرب في الرواية العربية

¹ - محسن جاسم الموسوي، الرواية العربية، النشأة والتحول، دار الآداب، ط2، بيروت، 1988، ص23.

² - سيد البحراوي، محتوى الشكل في الرواية العربية، النصوص المصرية الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص37.

³ - ينظر: عبد الكبير الخطيبي: في الكتابة والتجربة، ترجمة: محمد برادة، دار العودة، بيروت، ط1، 1980، ص92.

أشكالاً من الصراع، والنفور، والإعجاب، والولع بالآخر (الغرب) الذي أصبح يسكننا ويحضر فينا في وعينا ولا وعينا، ويتراءى لنا في كل شيء من حولنا، وكاد أن يسلب منا العقل، والقلب، والمخيلة.

فجاءت الرواية العربية وفتحت نوافذ أطلت منها على الغرب، وأبواباً دخلت منها إلى صلب الحضارة الغربية، وحاولت أن تجيب عن عديد من الأسئلة التي تشغل بال الإنسان العربي، بصفة عامة، والمثقف، بالخصوص لماذا نحب هذا الغرب وفي الوقت نفسه نكرهه؟! وبعبارة أبسط: لماذا نبادل هذا (الآخر) صفح القلوب المدلّهة ونرتمي في أحضانه، ثم سرعان ما تنفر نفوسنا منه؟!

- هل عرفنا من هذا (الآخر) من (الخارج) و(الداخل) وتفاعلنا معه تفاعل الأقوياء فكرياً ومادياً؟!

- ماذا يريدوا منا الغرب، وماذا نريد منه؟... وغيرها من الأسئلة التي كانت تجول في ذهن المثقف العربي في لقاءه بالغرب محاولاً الإجابة عنها في خضم تحدي الغرب السياسي، والفكري، والأدبي والحضاري عامة، في إطار ما يسمى بصدمة الحداثة الغربية؛ ذلك لأنّ «منذ رحلة الطهطاوي الشهيرة، ونداء البحث عن الذات هو الأطروحة المركزية في لهفة المثقف العربي لمعانقة أشواقه يأساً أو هروباً، أو خذلاً من جهة، أو استجابة تفضي إلى مواجهة في إطار التحدي الشامل للغرب العدو من جهة أخرى»¹.

ولعل استمرار الرواية في التعامل مع إشكالية اللقاء الحضاري في تنوع التجارب أثبتت الفكرة القائلة «الرواية تستحق أن تكون هي الجنس الأدبي الأقدر على التعبير عن علائق الإنسان الحديث المعقدة سواءً على صعيد الذات أو على صعيد فهم المجتمع والكون واستيعاب التحولات المتسارعة»²، أي أنّ العمل الروائي بسمته التركيبي «قادر على التعبير عن مختلف القضايا الحضارية

¹ - عبد الله أبو هيف، القصة العربية الحديثة والغرب، منشورات اتحاد كتاب، ط1، العرب، دمشق، 1994، ص21-22.

² - محمد برادة: الرواية أفقا للشكل والخطاب المتعددين، مجلة فصول، العدد4، السنة11، سنة 1993، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ص10.

والواقعية بتجسيد في، وتكثيف في في آن»¹ وفي نفس الإطار يضيف نجيب التلاوي بأنّ الرواية «ليست نصاً وإنما هي ممارسة نصية مفعمة بالفكر، والفن، والحياة وهي الأقدر على تجسيم هذه الموضوعات»²

هكذا، فإذا كان الأدباء قد تمثلوا اللقاء بين العرب والغرب مستجيبين له بتمثل أشكاله ومناقشين لقضاياه أحياناً، ومجسدين لرؤياتهم له غالباً، فإنّ الروائيين كانوا أكثر هؤلاء الأدباء فعلاً لذلك بالرغم من حداثة الفن الروائي بشكل خاص، خاصة ونحن نعلم أنّ العرب لم يمتلكوا في أدبهم رواية فنية إلا بعد فترة ليست بالقصيرة من تحقيق اللقاءات الحضارية الحديثة بين العرب والغرب يضاف إلى ذلك أنّ الإبداع لا يهتم بالوقائع بقدر اهتمامه بالعواطف، عدا ذلك اهتم المفكرون والمتقفون باللقاء بين الشرق والغرب مبكراً؛ فقد «انشغل مفكرو عصر النهضة العربية بقضية العلاقة بين الشرق والغرب، وسجلوا تجاربهم لدى ارتطامهم بالحضارة الأوروبية وحددوا مواقفهم ورؤاهم بالنسبة لهذه العلاقة وأثارها ونتائجها»³.

إذن، مع رواد النهضة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وحتى اليوم، تطرح العلاقة بالغرب نفسها كإشكالية فكرية وأدبية وغالباً ما يتم «التعبير عن هذه الإشكالية في الإنتاج الفكري والأدبي عن طريق المقابلة بين صور الذات أو الأنا أو نحن العربية وصور الآخر الحضاري الغربي مع فروق في الطرح تحددها مواقف ورؤى المفكرين والأدباء، وقد تعاملت الرواية العربية منذ تجاربها المبكرة، وحتى الآن مع هذه الإشكالية التي صارت طيمة محورية في الخطاب الروائي العربي»⁴ اشتملت

¹ - محمد نجيب التلاوي، الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1998، ص 27.

² - المرجع نفسه، ص 8.

³ - أ رجاء عيد، لقاء الحضارات في الرواية العربية، مجلة فصول، مج 16، ع 4، ربيع 1998، الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ص 57-76.

⁴ - محمد فتحي أبو العينين: صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي، تحليل سوسيولوجي لرواية "محاولة للخروج"، ضمن كتاب (صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه)، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، ط 2، بيروت، لبنان، 2008، ص 811.

على العديد من الطروحات والرؤى حتى باتت أشبه بتقليعة طالت مشاغل أكثر الروائيين العرب «إلا أنّها جاءت على مستوى عال من المسؤولية الثقافية والإبداعية عند الروائيين المخلصين لمشاريعهم، حيث تخلصوا من سلطة التقليد وعالجوا القضية بوعي فني وفكري وتقني متميز»¹ انعكس ذلك إيجابياً على تجاربهم وأصبح قضية مركزية من قضاياهم الروائية ذلك أن الاتصال مع الغرب «قد أثر بقوة على عدد من الكتاب العرب في السياق الشامل للمثاقفة»².

وفي هذا الصدد يمكن القول، مع الأستاذ محمد الياقوري، «أن طيمة الغرب تكاد تكون مستهلكة في الرواية العربية، إلا أنّ كل نص روائي يتناول ذلك الغرب تحت ضغط أسئلة خاصة يطرحها الواقع، خارج دائرة الأجوبة الجاهزة التي يقدمها تراث الماضي»³.

فظهر الرواية العربية له أسباب كثيرة تختلف باختلاف عوامل التأثير والتأثر، وقد خاض الباحثون في هذه الأسباب واختلفوا فيها لكنهم اتفقوا على الأساسية منها، ونحن سنشير، على سبيل المثال، إلى ما توفر لدينا من عوامل: ك (المثاقفة) التي تتمثل في حدوث اتصال ثقافي بين العرب والغرب في شتى الميادين، علمية كانت أو أدبية، فارتفعت بذلك حركة الترجمة العربية في القرن التاسع عشر، حيث ترجمت أعمال مبدعين كبار، وكان التأثير واضحاً في مختلف الأصعدة، وبالإضافة إلى (المثاقفة) نجد المكون اللغوي والمنتخيل الروائي⁴.

فالرواية فن الآخر، إذ ما كان للرواية العربية أن ترى النور قبل صدمة اللقاء بالغرب، وهي بنائياً، قائمة على وجود البطل الآخر ضمن إشكالية العلاقة بين العرب والغرب، من وجهة نظر سوسولوجية صرفة تكاد مقولة (الآخر) تكون مقولة مؤسسة للرواية العربية بمعنيين:

¹ - محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، سوريا، 2008، ص:82.

² - أحمد المديني، الرواية المغربية، وضع الهوية في العلاقة مع الآخر، مجلة فكر ونقد، ع13، السنة 2، أكتوبر 1998، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص124.

³ أحمد الياقوري، دينامية النص الروائي، اتحاد كتاب المغرب، ط1، الرباط، 1993، ص51.

⁴ - ينظر: أحمد الياقوري، الرواية العربية، التكون والاشتغال، المدارس، ط1، الدار البيضاء، 2000، ص26-55.

أولاً: من حيث نشأة الرواية وظهورها، بل حتى تطورها في الثقافة العربية الحديثة كنوع أدبي طارئ ومستحدث ما كان مقيضاً له أن يرى النور قبل صدمة اللقاء بالغرب، فالرواية كنوع أدبي تكاد تكون بالتعريف (فن الآخر) ...ثانياً: من حيث البنية الروائية، وتحديد ما يتمحور من هذه البنية حول البطولة بمعناها الروائي، فبقدر ما أن الرواية هي بالضرورة رواية بطل، فلنا أن نلاحظ أنه ليس من قبيل الصدفة أيضاً أن يكون للآخر بالمعنى السوسولوجي للكلمة، دور كبير في (دور البطولة) في الرواية العربية

ويبدو أن مرد ذلك هو طبيعة الجنس الروائي المتعامل مع الحياة والواقع والناس والتجربة أكثر من أي جنس آخر.

وقد تناولت الرواية العربية قضية الغرب من خلال عدّة جهات:

- من الجهة الدلالية باتخاذها الغرب موضوعاً من موضوعاتها.

- ومن الناحية الحضارية والثقافية بغية «بلورة الكيان، والهوية، وعي الذات الفردية والقومية، وعي الآخر العالم، ...منذ محاولاتها الجينية في القرن الماضي أو مطلع القرن العشرين حسبما يرى الدارسون لظهورها، ساعات لكي تكون مجلى لتلك المسألة بما تعنيه من استيفاء لأوروبا وللذات القومية، هكذا تواتر إنتاج رفاة الطهطاوي، حسن العطار، علي مبارك، أحمد فارس الشدياق، فرج أنطوان، سليمان الفيضي، محمد المويلحي...»¹.

ولا ريب أنّ الروائي بصفته مثقفاً، يستحضر الوعي الجمعي في إبرازه للمواقف التي يجب أن يتخذها العرب من الغرب في زمن فرض (الآخر) نفسه على كل المستويات الثقافية، والسياسية والاقتصادية، وجل ما ينظم الحياة العامة للشعوب العربية، إلى درجة أصبح الغرب قارا داخل الذات والنسيج الاجتماعي إلى درجة يمكن القول: إنّ العرب أصبحوا يتنفسون الغرب.

¹ - نبيل سليمان، وعي الذات والعالم، دراسة في الرواية العربية، دار الحوار، ط1، اللاذقية، سوريا، 1985، ص:5.

- من ناحية أخرى فنية، فالرواية العربية، باعتبارها شكلاً أدبياً غريباً، لازال تصارع الغرب بالتحجيب إثباتاً لهويتها الخاصة، شكلاً ومضموناً، واستقلالها عن أصلها الغربي لتنال شرف الانتساب للأصل العربي.

وقد عاجلت الرواية العربية عدداً من القضايا في تناولها لموضوع الغرب، باعتبارها إحدى عناصر تجليات الفكر العربي التي لا يمكن الاستهانة بها، وبصفتها -أيضاً- تجسيدا فنياً لتصوير الوعي واللاوعي الجمعي للشعوب العربية (الذات والآخر). وقد تناولت الغرب موضوعاً لصيقاً بتاريخ الأمة وكيانها، مرتبطاً بمختلف القضايا التي تعالجها الرواية على الصعيدين الداخلي والخارجي للشرق بصفة عامة، أو للأوطان العربية كل على حدة.

ومن هذه القضايا، شؤون السياسة والاجتماع كالديمقراطية، والاستعمار الجديد، والتوجيه السياسي الغربي للبلدان العربية عن بعد، والتخلف والتقدم، والصراع الطبقي، والقهر، وقضايا فلسفية ونفسية كالمادة، والروح، والعلم، والإيمان، والحرية، والتغريب، والتمرد، والاستلاب، واقتصادية، وثقافية كالاستغلال، والتبعية والهيمنة، والحضارة، والوعي الذاتي والجماعي، والبحث عن الهوية، والمدنية، مما يدل على أنّ الغرب «لم يعد مجرد مكان هناك، وإنما أصبح من تاريخ الكاتب، تأريخه الشخصي، ومن تأريخه القومي الحافل بالتقلبات، كما أصبح أبنية حكاية لا فكاك له منها»¹.

لقد طرح اللقاء الأول مع الغرب مشكلات أدبية وفكرية عدة، ظلت تستأثر باهتمام المفكرين والأدباء، ولا يزال النقاش فيها لم يحسم إلى يومنا هذا، وقد تبلورت هذه المشكلات على الصعيدين النظري والعملي وتجادلت جميعها حول قضايا رئيسية هي: التراث، والتجديد، والحرية والوعي، والإصلاح، ولم يتأسس حولها اتفاق المثقفين فانقسموا بين محافظ، وعلماني، وتوفيقي.

ولا ريب أن رد الفعل اتجاه الغرب في هذا اللقاء كان بسيطاً وواضحاً، وأنّ هذا الترحال من بيئة إلى أخرى سيولد عناصر جديدة هي نتاج أدبي تتداخل فيه ألوان الشرق والغرب، وتتجلى فيه

¹ - عبد الكبير الخطيبي: في الكتابة والتجربة، مرجع المذكور، ص 93.

روحية الشرق، ومشكلات مزوجة بمادية الغرب، وتقنيته، واهتماماته، وفنونه، لأنّ العلاقة بين الثنائي الشرق والغرب لم تكن معقدة بالصور التي هي عليها الآن، وبمرور الوقت تطورت هذه العلاقات وتعددت معها نظرة الشرق إلى الغرب، فلم يعد الغرب ذلك النموذج الحضاري والثقافي مثال الحرية والديمقراطية، بل انهار النموذج ولم يوجد بديل عنه في الشرق¹. وبعد ذلك حصل الوعي بالغرب ولكنه كان وعياً شقيماً بدا فيه الغرب بصور متناقضة؛ فالغرب مرفوض لكنه مرغوب، يعجب، لكنه مخيف، وخطر، الغرب بيني، ويهدم، يشدال عرب بجاذبيته، ويحملهم على كراهيته في آن واحد، كلما يزداد تحضراً يزيد في توحشه، «وقد زاد الخوف من الغرب عندما ارتبط حضوره في المنطقة بالاستعمار وفتيت البلاد العربية... ليتحول هذا الرفض، وهذا الخوف فيما بعد، إلى رفض قاطع وكلي لكل ما هو غربي، مع العلم أنّ هذا الرفض يشكل أحد مظاهر (الوعي الشقي)؛ ذلك أن الغرب يرفض لفظياً، لكنه رفض مستحيل فيما يبدو عملياً، فهذا الغرب ببساطة هو المسيطر بجيوشه وثقافته وتقنياته، ومن هنا فإنّ هذا الرفض يبدو غير مطابق للواقع ويبقى لفظياً، فحتى السلفيون يعيشون في ظلال الغرب ويستمتعون بمخترعاته، مثلما يكتوون بنار استعمارهم»².

وهذا (الوعي الشقي) خصه الروائيون العرب باهتمام كبير في نتاجهم الروائي، بعدما أدركوا قدرة الغرب الثقافية على نفي الذات من خلال ممارساته ضد المثقف العربي التي لم يسلم منها أي قطر من أقطار الوطن العربي، مما جعل المواجهة النصية الفكرية عنيفة أكثر مما كانت عليه في فترة الاستعمار الغربي، وفي خضمها تقع الذات المثقفة في حيرة المأزق الحضاري والعلاقات المعقدة جدا مع الغرب العدو والصديق الذي يخطط لتمزيق الذات من قريب أو بعيد؛ حيث يتقدم ليتوغل في كيائها الداخلي وبنيتها الذهنية، حتى لا يمكن إدراك الذات والتعرف عليها إلا من خلال الغرب وبوساطته، فهو المرأة التي نرى من خلالها أنفسنا؛ فنحن لا نعرف هل نحن نسير إلى الأمام أم إلى

¹ - ينظر غالي شكري، ثقافتنا بين لا ونعم، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1972، ص209-217.

² - محمد كامل الخطيب، الشرق والغرب، القسم الأول (1870-1932)، ج1، (سلسلة قضايا وحوارات النهضة العربية)، رقم:06، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط1، 1991، ص11.

الوراء إلا بالمقارنة بين واقعنا وواقعه، ومن ثم يتحول الغرب كما يقول برهان غليون: «إلى محرق العالم ومحرق نشاطه ومركزه، فهو العداوة اللئيمة، والغربة المطلقة والمغايرة، وهو عالم التحرر والانطلاق وأنهيار الحدود ومولد الإنسانية الكونية، والمهرب من انجاس الذات وضيقها وهو بوصفه كذلك يثير في الذهن شعورين غامضين: الخطر الجاثم على النفوس والحلم الساحر، الانسحاق الكامل والفضول الدائم»¹.

لهذا رأى أحد الباحثين المعاصرين أنّ التاريخ الحديث، والمعاصر تاريخ غربي؛ عاشه الشرق كانهطاط وعجز للذات عن التقدم، وعاشه الغرب في إنجاز حضاري فذ سلبية مطلقة فيما يتعلق بالشرق، وإيجابية كاملة فيما تعلق بالغرب. ومن ثم، بقي الوعي العربي يتشظى بين صورتين:

أ-وعي يشعر بالنقص والدونية يؤدي إلى احتقار الذات، واستصغار قيمتها، ورفضها بتجربدها من كل صفاتها الإنسانية، ويتحول هذا الشعور في أحيان كثيرة إلى ما يشبه الرغبة في تدمير الذات.

ب-وعي متعال يشعر بالتفوق والأسبقية الحضارية والروحية.

وكلا الوعيين لا يتكيف مع حقيقة الواقع، فالوعي الأول يصرف الذات عن انتقاد الآخر والكشف عن عيوبه، والشعور الثاني يحجب الحاجة الضرورية لنقد الذات ومواجهة نواقصها وإدراك حقائقها الواهية².

ويخصي برهان غليون أربعة مواقف للوعي العربي إزاء قضية الغرب:

1. موقف يضحى بالذات من أجل إرضاء الغرب.
2. موقف يضحى بالغرب في سبيل إرضاء الذات.
3. موقف ممزق ومنقسم شطرين، فتارة ينبذ الغرب في سبيل الذات، وتارة أخرى ينبذ الذات من أجل الغرب.

¹ - برهان غليون، الوعي الذاتي، منشورات عيون، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص107.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص105، ص109.

4. وموقف آخر يدرك تناقضه يفكر فيه ويسير به بكل موضوعية نحو حل لا يوجد الآن والمتقفون العرب أصحاب هذا الوعي يتقبلون تمزقهم، ويصارعونه عبر مختلف التيارات، وضدها، من أجل أن يكتشفوا أنفسهم.¹

ومن صلب هذه المواقف طرحت الرواية العربية مسألة - الشرق والغرب- التي اكتسبت مفاهيم جديدة؛ باسم الشمال والجنوب، أو المجتمعات المصنعة وغير المصنعة، (الغرب) أو العالم الفقير والعالم الغني، التخلف والتقدم، وفي كل هذه التحديات يبقى هو الهوية المقابلة التي من خلالها تتحدد هوية الذات، وربما تكون هذه الحالة أكثر ما تكون ظهور سلسلة كاملة من الروايات العربية بدأت بالظهور منذ الثلاثينات، وما تزال مستمرة وهي روايات تدور بشكل مركزي حول العلاقة بين الشرق والغرب.

- قائمة المصادر والمراجع:

1. عبد الكبير الخطيبي، في الكتابة والتجربة، ترجمة: محمد برادة، دار العودة، بيروت، ط1، 1980.
2. أحمد اليابوري، الرواية العربية، التكون والاشتغال، ط1 المدارس، الدار البيضاء، 2000.
3. أحمد اليابوري، دينامية النص الروائي، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط1، 1993.
4. برهان غليون، الوعي الذاتي، منشورات عيون، ط1، الدار البيضاء، 1987.
5. جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج2، دار الهلال، القاهرة.
6. سيد البحراوي، محتوى الشكل في الرواية العربية، النصوص المصرية الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996.
10. عبد الله أبو هيف، القصة العربية الحديثة والغرب، منشورات اتحاد كتاب العرب، ط1، دمشق، 1994.

¹ - ينظر: برهان غليون، الوعي الذاتي، مرجع مذكور، ص111-114.

11. غالي شكري، ثقافتنا بين لا ونعم، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1972.
12. فاروق خورشيد، فن الرواية العربية، عصر التجميع، مكتبة الثقافة، ط2، الدنينة، القاهرة، 2002.
13. محسن جاسم الموسوي، الرواية العربية، النشأة والتحول، دار الآداب، ط2، بيروت، 1988.
15. محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، سوريا، 2008.
16. محمد فتحي أبو العينين: "صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي، تحليل سوسولوجي لرواية "محاولة للخروج"، ضمن كتاب (صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه)، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت، ط2، لبنان، 2008.
17. محمد كامل الخطيب، الشرق والغرب، القسم الأول (1870-1932)، ج1، (سلسلة قضايا وحوارات النهضة العربية)، رقم: 06، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط1، 1991.
18. محمد نجيب التلاوي، الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1998.
19. محمود تيمور، نشوء القصة وتطورها، المطبعة السلفية، القاهرة
20. نبيل سليمان: وعي الذات والعالم، دراسة في الرواية العربية، دار الحوار، ط1، اللاذقية، سوريا، 1985.
- المجلات:
1. أحمد المدني، الرواية المغربية، "وضع الهوية في العلاقة مع الآخر"، مجلة فكر ونقد، ع13، أكتوبر 1998، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.
2. محمد برادة، الرواية أفقا للشكل والخطاب المتعددين، مجلة فصول، العدد4، السنة11، سنة 1993، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

3. رجاء عيد، لقاء الحضارات في الرواية العربية، مجلة فصول، مج16، ع4، ربيع1998، الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.